صورة الأندلسيين الموريسكيين
تحت الاحتلال الإسباني ١٤٩٢_١٦١٤

أ.م.د. صفاء عبدالله بُرهان

Condition of Andalusian Al-morisikieen under Spanish occupation 1492 – 1614

phd , asst; Safaa` Abdullah Burhan

Research deals with the horrors of Andalusia after the Islamic Arab rule in showing condition of Andalusian under Spanish occupation and their suffering in living and practicing their Religious ceremonies

La condition de la vie chez les gens andalousites maures sous l'occupation espagnole 1492-1614

Prof-ajointe. D. Safa Abdullah Borhan…

La recherche traite les terreurs vécues à l'Andalousie après la fin de l'autorité arabo-musulman, indiquant la situation andalousite sous l'occupation espagnole et leur souffrance de vivre et de pratiquer leurs rites religieux…

بسم الله الرحمن الرحيم

. مدخل:

ارتبطت حال المسلمين بالظروف التي تحيط بها في كل زمان ومكان، وكثيرا ما كانت تبرز مفاهيم تراعي الأبعاد المتعددة من اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ لهذا وجدنا بعض القوى الفاعلة على الساحة السياسية، تستغل الدين كذريعة فكرية في الصراع السياسي، الذي تديره مع القوى المنافسة، ولاسيما في حال الغالب والمغلوب.

هذا المنظور الذي اعتنقته الدول الغالبة، يمكّن من قراءة الانشطار في الشخصية الإنسانية، الذي يفصح بدوره عن التواري خلف جدران الحقيقة؛ ليسمح بتأويل شخصه وحياته التي تساير الهيمنة المفروضة بقوة السياسة. وتأسيسا على هذا المنحى السلوكي الذي تتخذه الشخصية المتوارية، كان لصورة الحياة الأولى للمسلمين الأندلسيين في صدر الاحتلال الإسباني، أن تدفع بالأخير إلى العمل على أن يغادروا دين الإسلام. ولم يقتصر على فئة دون أخرى، حينما يشتد وطيس الصراع الأثيني مع الآخر المذهبي والديني.

لقد كان للأهوال التي مرت بها بلاد الأندلس، بعد أن تلاشى الحكم العربي الإسلامي فيها، أن تخلق خلال سنوات قليلة طائفة إسلامية، توارت عنوانتها خلف مسمى الموريسكيين أو الموراركة، بخاصة بعد أن فرض المنتصر الإسباني الكاثوليكية، عنوانا دينيا على الجميع أن يتوشحوا به في تلك البلاد. ففي غضون سنوات قليلة سارت عملية كثلكة المجتمع الأندلسي على قدم وساق؛ بما يخالف ما نشأ عليه أولئك المسلمون من فطرة دينية، ألف الجميع سماحته التي تقفز على صعوبة الطقوس التعبدية في دياناتهم القديمة التي أثقلت كاهل من اعتنقها. فكان على أبناء الأندلس أن يشرعوا في صورة مزمنة ومتنوعة، استمرت لأكثر من قرن ليحكم هويتهم الذاتية، التي تمسكوا بها واتخذوا أبشع الأساليب التي اكتوت بها أرواحهم وأجسادهم، وجعلوا من الطرف الأسباني يعيش في وهم عميق، شغله عن الحقيقة الإسلامية، واعملوها في بناء تصور مخالف لما هم عليه من حال، بما يبرز

الانشغال الحقيقي لدى هؤلاء القوم، وبما تشكل الفهم الذاتي الفردي، وتقحم القصدية المبيتة في الوجدان المقابل؛ لهذا كان على الباحث أن يتابع مفهوم الموريسكيين أو الموازكة، ومن ثم أهم الأطوار التي وسمت بها صورتهم؛ من دينية واجتماعية وثقافية، فأهم النتائج التي توصل لها البحث. والله تعالى ولي التوفيق.

ـ من هم الموريسكيون :

كان للظروف القاهرة التي ألفتها بلاد الأندلس، أن تسرّع في عملية إنهاء الوجود العربي الإسلامي في تلك البلاد، وهو الأمر الذي يجد تفسيره الواضح في السقوط الرهيب للقواعد الأندلسية منذ فاتح القرن السابع الهجري. حتى وصل الأمر في سلخ القرن التاسع الهجري، إلى أن يُسلم أبو عبد الله الصغير (مملكة غرناطة) للجيوش الإسبانية.

وهكذا قدر على غرناطة في ثاني أيام العام ١٤٩٢، أن تستيقظ على سنابك الخيل الأسبانية، التي قرعت أسماعهم بدخول الملكين فرناندو دي آراغون، وزوجه إيسابيلا دي قشتالة؛ ليزيلوا آخر ما بأيدي المسلمين من ملك على الأندلس. وقد أثر عن سيدا الاحتلال تعهدٌ بحفظ الهوية الأندلسية، فقد ذكرا أنه (يسمح صاحبا السمو وسلالتهما، للملك أبي عبد الله الصغير، وشعبه أن يعيشوا دائما ضمن قانونهم ـ أي بممارسة الشعائر الإسلامية، دون المساس بسكانهم وجامعهم وأبراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم وقضاتهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين).[1]

والواقع أن مثل هذه التعهدات، كانت محل ريبة الوجدان الأندلسي، الذي يعلم علم اليقين أن هذه المفردات التي يرددها الفاتحون، إنما تخالف الذهنية التي صاغت تلك التعهدات، بل إنها كانت لا تساوي أكثر من وسيلة سياسية آنية، تعتمدها لاستقرار أمور الحكم في المدن المفتوحة، التي استغلت منح الحريات الدينية لتحقيق غاياتها ومطامحها. ولاسيما أن الأمور لم تكن لتستقر لهم

---

(١) آفاق غرناطة: والنظر ايرفينغ: ٦٠.

أعربوا عن نواياهم من الهوية الدينية والاجتماعية والثقافية للمسلمين الأندلسيين.
لكن ما أن بدت الأمور تأخذ مسراها حتى (أصدرت إيزابيلا مرسوما ملكيا في سنة ١٥٠٢م، يخير فيه المسلمون بين التنصر أو مغادرة غرناطة وكل بلاد الأندلس، ولا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة أو أنثى فوق سن الثانية عشر بعد شهر أبريل إلا إذا تنصروا. وسمح لهم المرسوم ببيع عقاراتهم وأملاكهم قبل الرحيل، ولكنه حضر عليهم إخراج الذهب والفضة).[١]

وبموجب هذا القرار فقد كان على الأسبان أن يعيدوا الاعتبار لأنفسهم، بعد تاريخ طويل من السيطرة الإسلامية على التراب الأندلسي، وما تمخض عنه من دخول أبناء الجزية في دين الله أفواجا، وقد كانت إيزابيلا تنظر فيما أقدمت عليه من عمل أثيني، إلى إعادة اكتشاف الأنا في الذات الإسبانية، بوساطة سلب الخصوصيات الأندلسية الأساسية، التي شرعت ببناء المعرفة الإنسانية، من خلال الزاوية العربية الإسلامية. فما كان من الأسبان ومن خلفهم الأوروبيون، إلا أن يحكموا عملية إسقاط الهواجس الباطنية الخاصة بهم، ومن ثمة فرض إستراتيجية الاحتواء الكاثوليكي للذهنية الأخرى، بخاصة تلك التي رابطت على التراب الأسباني، ووجدت أن الأمور لا يمكن لها أن تستقيم بخلاف ما تؤمن به من فهم للحريات الدينية، ولاسيما (أن القرن السادس عشر كان بالنسبة إلى الغرب الكاثوليكي، هو القرن الذي امتاز _حوالي الخمسينات_ بمجمع الأساقفة الذي انعقد بمدينة (ترانت)؛ حيث تقدمت إسبانيا بصفة النصير للكاثوليكية. فهي حاملة لواء الوحدة الدينية. والأسكورال ذلك القصر القريب من مدريد، هو المعقل والرمز لمقاومة البدعة والخروج عن المذهب الكاثوليكي).[٢]

وعلى وفق ذلك شكّل استيلاء الأسبان على غرناطة، الفرصة المنتظرة التي يمكن للأسبان أن يعملوا بها على تحويل المخالفين للعقيدة الكاثوليكية، عن دينهم من

---

(١) وتذكروا من الأندلس الإبادة: عادل سعيد بشتاوي: ٣٣٧.
(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: لوي كارديلاك: ١٢٧.

المسلمين واليهود والبروتستانت، وقد أعدّوا في سبيل تحقيق ذلك الوسائل الكفيلة لإنجاح مهمتهم، فلم يتورعوا عن اتخاذ أبشع صنوف الإقصاء والاضطهاد والتعذيب. إزاء الذين يعتنقون تصورًا معارضًا للتصوّر الكاثوليكي، ومن بين تلك الوسائل العمل بديوان التحقيق، الذي أمسى السلطة الرهيبة لفرض التنصير الإجباري؛ فقد (سلطت الكنيسة محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق الذي أعطى صفة القداسة وتأييد العرش الكاثوليكي على هؤلاء، فعذبتهم سرا وعلانية بما أغدقه الخيال المسيحي على محترفي المسيحية).[١]

وتأسيسا على ذلك وجد الأسبان المنتصرون أنهم فتحوا آفاقا واسعة، تستفيد من التطورات العسكرية والسياسية التي حلّت ببلاد الأندلس، وأيقنوا أن محاكم التفتيش ستدفع إلى اكتشاف حال المسلمين الأندلسيين الخفية، وقد أطلقوا عليهم اسما جديداهو (الموريسكيون) أو (الموراركة)؛ وتعني فيما تعني من مسميات عربية: (العرب الصغار)؛ لتبرز حقيقة التسمية التي أرداها الأسبان؛ إذ(لم يرتض لهم النصارى الأسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سمّوهم بالموريسكيين؛ احتقارًا لهم، وتصغيرًا من شأنهم، فلم يكن الموريسكي نصرانيا من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيرا لهذا النصراني الأصيل).[٢]

والحقيقة التي نخرج بها من هذه التسمية، هي قيام رؤية الأسبان على عزل الأندلسيين عن المسيحيين الأصليين، ومن ثم عدم مساواتهم في الحقوق التي حشرتهم بها عملية التنصير المفروضة نفسها. ومن هنا فهم سيسيرون حتما في عملية البحث عن الخصائص التي تبرز الموريسكيين، الذين لا يجتمعون معهم إلا بهذه التسمية المقترحة والدقيقة. وعليه كان على الموريسكيين أن يحافظوا على ما ورثوه من مآثر أجدادهم بشتى الوسائل، فوجدوا في الصورة الوسيلة الفضلى للمحافظة على ما يمكن المحافظة عليه من كيانهم المهدور، فـــ(عندما بدأ

---

(١)قصة الجالية الأندلسية في المغرب: الحسن السائح: ١/٧٤.

(٢)قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط: د. راغب السرجاني: ٦٩٥.

الموريسكيون يعمدون كرها، أخذ مجتمعهم يتحول شيئا فشيئا إلى جمعية سرية، وهكذا نشأ مذهب إسلامي خفي).(١)

وهم بهذا الشأن قد ذهبوا إلى عملية تأطير التفاعل بين أبناء ، ضمن تنظيم داخلي يجعل المسلم، يشعر بأنه فرد مرصود ومستهدف من قبل الأسبان، وعليه أن يخمد تصوراته الموروثة في وجدانه، وهو بذلك يسير على آثار المسلمين الأوائل، الذين كتموا إيمانهم في بداية الدعوة الإسلامية المباركة، فضلا عن كثير من المواطن التي شهدت الاحتدام السياسي والديني، بين المسلمين وغيرهم من أبناء الملل والنحل، ولم يأتوا بجديد من الأمر، بل توجهوا إلى حفظ دينهم بالصورة التي تزرع الطمأنينة في نفوس الموريسكيين أو الموراركة، وهما المفهومان اللذان سيتكرهما الباحث؛ لدلالتهما المعهودة عن هذا الشعب المسلم المهيض.

ـ الصورة الدينية:

كان الهاجس الديني أهم الهواجس التي حاصرت الذهنية الإسبانية، وقد دشّن ملوك إسبانية الجدد حكمهم الجديد في غرناطة المحتلّة، بما يلفت جمهورها الكاثوليكي إلى أهمية توحيد تراب المملكة سياسيا ودينيا، وهو الشأن الذي ركنوا إليه في سيرتهم التي تسعف مطلبهم، الذي لا يمكن تفسيره إلا في شمولية الفكر الديني لدى إسبانيا نفسها؛ من طريق النظر إلى آليات نتاج العمل الديني المسيّس، وهو ما بدا في أقوال وأفعال الملوك الأسبان، فقد أثر عن الملك فليب الثاني، قوله: (إنه يفضل أن يضيع مملكته على أن يحكم أهل البدعة والكفر).(٢)

وهذه المقولة تختصر الصورة الملكية الأسبانية، التي تفضل المغامرة بالتراب الأسباني والسلطة الحاكمة، إزاء وصول من يخالفها في العقيدة الكاثوليكية، ويقصد بذلك المسلمين واليهود الذين حاول صهرهم في التنصير الأسباني؛ لهذا فلم يتورع

(١) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٢٨.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٢٧.

الموريسكيون يعمدون كرها، أخذ مجتمعهم يتحول شيئا فشيئا إلى جمعية [illegible] سرية، وهكذا نشأ مذهب إسلامي خفي).(١)

وهم بهذا الشأن قد ذهبوا إلى عملية تأطير التفاعل بين أبناء [illegible]، ضمن تنظيم داخلي يجعل المسلم، يشعر بأنه فرد مرصود ومستهدف من قبل الأسبان، وعليه أن يخمد تصوراته الموروثة في وجدانه، وهو بذلك يسير على آثار المسلمين الأوائل، الذين كتموا إيمانهم في بداية الدعوة الإسلامية المباركة، فضلا عن كثير من المواطن التي شهدت الاحتدام السياسي والديني، بين المسلمين وغيرهم من أبناء الملل والنحل، ولم يأتوا بجديد من الأمر، بل توجهوا إلى حفظ دينهم بالصورة التي تزرع الطمأنينة في نفوس الموريسكيين أو الموارکة، وهما المفهومان اللذان سيتكرهما الباحث؛ لدلالتهما المعهودة عن هذا الشعب المسلم المهيض.

ـ الصورة الدينية:

كان الهاجس الديني أهم الهواجس التي حاصرت الذهنية الإسبانية، وقد دشّن ملوك إسبانية الجدد حكمهم الجديد في غرناطة المحتلّة، بما يلفت جمهورها الكاثوليكي إلى أهمية توحيد تراب المملكة سياسيا ودينيا، وهو الشأن الذي ركنوا إليه في سيرتهم التي تسعف مطلبهم، الذي لا يمكن تفسيره إلا في شمولية الفكر الديني لدى إسبانيا نفسها؛ من طريق النظر إلى آليات نتاج العمل الديني المسيّس، وهو ما بدا في أقوال وأفعال الملوك الأسبان، فقد أثر عن الملك فليب الثاني، قوله: (إنه يفضل أن يضيع مملكته على أن يحكم أهل البدعة والكفر).(٢)

وهذه المقولة تختصر الصورة الملكية الأسبانية، التي تفضل المغامرة بالتراب الأسباني والسلطة الحاكمة، إزاء وصول من يخالفها في العقيدة الكاثوليكية، ويقصد بذلك المسلمين واليهود الذين حاول صهرهم في التنصير الأسباني؛ لهذا فلم يتورع

---

(١) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٢٨.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٢٧.

عن اتخذ أية وسيلة للحد من النفوذ الديني المخالف، مقتديا بعمل والديه المتعصبين، اللذين لم يدخرا جهدا في حرب المسلمين، بخاصة فيما أسندوه من مهام إلى الكاردينال المتعصب خمينث، الذي سجّل بأفعاله الهمجية أسوأ نكبة عرفتها البشرية: فـــ(في صباح يوم مشؤوم انتكبت فيه الحضارة الإنسانية أمر خمينيث بالمنادين، فطافوا في البيازين يأمرون الناس بإخراج كل كتبهم، وأنذروهم بعقاب شديد إن خالفوا الأوامر. ودار الجنود وأهل الكنيسة على مساكن الغرناطيين، وحملوا المخطوطات إلى الساحات الرئيسة، فتجمع منها أكثر من مليون مخطوطة).(١)

وهكذا أعلنت السياسة الأسبانية الحرب الدينية على الموريسكيين، وفتحت بابا واسعًا لمنع الموريسكيين من تراثهم بنحو مثير للانتباه، وقد نجحت في استنزاف الخزين الديني الموجود في المخطوطات الإسلامية، بخاصة أنها وصلت إلى مرحلة رفض الإسلام شرعة ومنهاجا، وأفرغت ذلك التّراث وعناصره الإيجابيّة التي تستثمر معطيات الماضي لمواجهة مستجدّات الحاضر. ولم يكن أي أندلسي بمنأى عن ذلك الهجوم التنصيري، بل إن هناك من الأندلسيين من حاصره التنصير المعلن، بخاصة في قشتالة؛ إذ (إن الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في قشتالة وليون ومملكة غرناطة لم يجدوا أنفسهم متنصرين، يوم انتهاء المدة المحددة في المرسوم، بل متنصّرين بموجب مرسوم ملكي ومن وجهة النظر القشتالية فقط؛ لهذا لم يستيقظ الأندلسيون فجر ذلك اليوم لقراءة الإنجيل، ولم يهبطوا لقبول التعميد ولم تمتلئ الكنائس بهم يوم انتهاء المهلة ولا بعدها).(٢)

ومن هنا فقد لاحت أسئلة كثيرة في عيون الموريسكيين، تحاول البحث عن أجوبة لحالهم تحت المناخ الكاثوليكي، ومحاولة البحث عن نشاط أتباعهم، ولتأسيس واقعهم الديني الجديد، الذي يجب على جميع أفراده، التعرّف على مفاده في ظل التنصير المفروض والمعروض معا. ولما كانت المراكز الدينية تتبع مؤسسة رسمية مؤدلجة، فضلا عن مؤسسة محاكم التفتيش الرهيبة، فمن الطبيعي أن نجد ثمة جهود

---

(١) الأمة الأندلسية الشهيدة: ١٣٤.

(٢) الأمة الأندلسية الشهيدة: ١٣٩.

تحاول تماسك الجيل الموريسكي المعاصر لحركة التنصير الأسبانية، وكان [illegible] حفظ ذلك الكيان المسلم، وقد لاحت وقتذاك تعاليم دينية للالتزام بها، ومن [illegible] ما جاء في رسالة مفتي وهران ابن أبي جمعة، الذي خاطبهم بكتاب حثهم فيه على التمسك بأواصرهم الإسلامية، قائلا: (مؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس).(١)

بذلك فقد أوصل هذا الفقيه الجزائري إليهم ما كانوا يحتاجونه، من وسيلة عملية تحتّم عليهم الالتزام بالإسلام دينهم ودين أجدادهم الأندلسيين، الذي عليهم أن يوصلوه بكل طمأنينة إلى أولادهم فأحفادهم. وهذا الأمر لا يتسنى له أن يسلك طريقه عن طريق ما يقوله المسلم الموريسكي أو يفعله في الظاهر، بل عن طريق ما يبطنه من إيمان قابع في أعماق الروح المسلمة؛ نتيجة ما حاصرها من ظروف حتمت عليها الصمت المزمن؛ لتأخذ منظومة المواركة الدينية موقعها ضمن بنية متكاملة. لا يمكن أن توجد فجوات عقائدية، تعمل على ترك مساحة للفراغ في منظومته الدينية، التي لا تبيح أن يفصح عما يؤمن به.

ومن هنا فإن الموروث الإسلامي العميق يبقى محافظا على طراوته، بوساطة الصورة الملازمة لحل الموريسكيين وترحالهم، وهكذا (كانت الكتب الدينية ونصوص الأدعية والأذكار، تنقل من يد إلى يد، وكان الذين يحسنون القراءة، يقرؤونها ويشرحونها للأميين، وفي بعض الأحيان كانت الأسر تحتفظ في بيوتها بمختلف النصوص الدينية، التي كانت تجمعها في مجلد، وتستعمل لتلقين أفراد الأسرة مبادئ الدين، وكان المجلد يزداد ضخامة من جيل إلى جيل).(٢)

وبوساطة هذه الحال التي اتخذها الموريسكيون في محيطهم المغلق، فقد كان للدين الإسلامي، أن يستمر بنحو منضبط في نفوس أولئك المسلمين، الذين اتجهوا

---

(١) نهاية الأندلس أو تاريخ العرب المتنصرين: ٣٤٣.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٣.

تحاول تماسك الجيل الموريسكي المعاصر لحركة التنصير الأسبانية، وكان حفظ ذلك الكيان المسلم، وقد لاحت وقتذاك تعاليم دينية للالتزام بها، ومن [illegible] ما جاء في رسالة مفتي وهران ابن أبي جمعة، الذي خاطبهم بكتاب حثهم فيه على التمسك بأواصرهم الإسلامية، قائلا: (مؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتك، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس).(١)

بذلك فقد أوصل هذا الفقيه الجزائري إليهم ما كانوا يحتاجونه، من وسيلة عملية تحتّم عليهم الالتزام بالإسلام دينهم ودين أجدادهم الأندلسيين، الذي عليهم أن يوصلوه بكل طمأنينة إلى أولادهم فأحفادهم. وهذا الأمر لا يتسنى له أن يسلك طريقه عن طريق ما يقوله المسلم الموريسكي أو يفعله في الظاهر، بل عن طريق ما يبطنه من إيمان قابع في أعماق الروح المسلمة؛ نتيجة ما حاصرها من ظروف حتمت عليها الصمت المزمن؛ لتأخذ منظومة المواركة الدينية موقعها ضمن بنية متكاملة، لا يمكن أن توجد فجوات عقائدية، تعمل على ترك مساحة للفراغ في منظومته الدينية، التي لا تبيح أن يفصح عما يؤمن به.

ومن هنا فإن الموروث الإسلامي العميق يبقى محافظا على طراوته، بوساطة الصورة الملازمة لحل الموريسكيين وترحالهم، وهكذا (كانت الكتب الدينية ونصوص الأدعية والأذكار، تنقل من يد إلى يد، وكان الذين يحسنون القراءة، يقرؤونها ويشرحونها للأميين، وفي بعض الأحيان كانت الأسر تحتفظ في بيوتها بمختلف النصوص الدينية، التي كانت تجمعها في مجلد، وتستعمل لتلقين أفراد الأسرة مبادئ الدين، وكان المجلد يزداد ضخامة من جيل إلى جيل).(٢)

وبوساطة هذه الحال التي اتخذها الموريسكيون في محيطهم المغلق، فقد كان للدين الإسلامي، أن يستمر بنحو منضبط في نفوس أولئك المسلمين، الذين اتجهوا

(١) نهاية الأندلس أو تاريخ العرب المتنصرين: ٣٤٣.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٣.

إلى ما تحمله من عناصر تماسك الأسرة الموريسكية، ترتكز في تلقين أدبيات الدين عن طريق عمليات النشر والتداول الحذر للنصوص الدينية. ومن جهة أخرى نجد ثمة جماعة تنشغل بتدريس أبناء جلدتها ممن لا يحسنون القراءة والكتابة، ولكنهم يحملون مآثر أجداهم الأندلسيين في وجدانهم، ما يفهم منه العمل الكبير الذي يبذل من ورثة التراث الأندلسي؛ للوصول إلى طموحهم الاجتماعي والعقائدي، الذي يدرس طبيعة النتاج الموروث، ومن ثم يسوقه في دورته الجديدة، التي تخادع تصورات التنصير الأثينية المسيسة، التي يفرضونها بديلا للموريسكيين، بما يحتم عليهم أن الانخراط فيه، والعمل على بلورته في وجدانهم المسلم، ولكن ذلك واجه معارضة قوية من قبل الموريسكيين بالفكر والسلوك وإن كان متواريًا؛ ودليلنا هو ما ألف من حال الموريسكيين عندما يذهبون إلى أماكن العبادة الكاثوليكية؛ فقد (كانوا يترددون على الكنائس و الأديرة؛ لكي يشاهدهم الأسبان، ويرضوا عنهم لقبولهم هذه العقيدة الجديدة. لكنهم في حقيقة الأمر لم يقبلوا بالنصرانية بديلا عن الإسلام، إلا في ظاهر الأمر، وقد استمروا في ممارسة شعائر دينهم الأصلي، سرا أيام الجمعة، وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة).(١)

وعلى وفق ذلك نفهم ما يرصفه الموريسكيون من تقاليد دينية مزدوجة، لا تذهب في حقيقتها أكثر من وجهة اجتماعية؛ لتنطلق على وفقها الرؤية المقابلة من مفهوم خاطئ في تحليل الخطاب السوسيو ديني لخصومهم الموريسكيين، بخاصة أن الأيبريين كانوا يحملون ظواهرهم، طبيعة اللحظة التي تنتمي إلى ما يرجوه أولئك المنصرون، من دون الخوض في ما يحتويه الوجدان الداخلي للموريسكيين، فضلا عن طبيعة الحياة الداخلية للقوم، التي لا تعطى أية إشارة تكشف عن حالهم.

هذا الشأن الاجتماعي الذي يبرز الحال الدينية المخالفة، يعطي للقارئ مقدار ذلك الجهد المتواصل، بخاصة في زمن اللحظة التطبيقية التي تخادع منظور التنصير، الذي يكتفي بطبيعة العلاقات الدينية التي يبديها مجتمع الموارك؛ لأن

---

(١) الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: ٦٩٢.

العلاقة بين الدين وعلاقات المجتمع، هي علاقة اتصال و تأثير تنتهي إلى بناء المكون المطلوب. والأمثلة على ذلك الصمود الموريسكي في شبه الجزيرة الأ[illegible] كثيرة، سواء ما كان منها على التراب الأسباني أم البرتغالي؛ فقد اعتر[illegible] المغاربة؛ أنه كان كلما رفع الراهب القربان المقدس (وكلما كان بالكنيسة ضرب صدره وفعل كل ما يفعله النصارى. ولكنه كان يؤمن بالرب الموجود بالسماوات العليا وليس بذلك القربان المقدس).[1]

وهذا الأمر يكشف لنا بوضوح حقيقية المسافة، التي يقف عندها المؤمن الموريسكي من عدد ممارسات الرهبان؛ لهذا ليس من الغريب أن نجد ذلك التصرف الموريسكي، يتسلل إلى الروح الأدبية الموريسكية التي سخرت بنحو لاذع من مسألة القربان المقدس، ومنه يتبين ما احتمله مجتمعهم من مسارات في بعض من الأحيان، التي ما برحت تنأى بنفسها عن أعراف التنصير المفروض، من خلال المنظور العقلي الذي ينطلق من تحليل الظاهرة الدينية، ومن ذلك أبيات للشاعر الموريسكي الكبير خوان ألفونسو الأراغوني:

يا من تؤمنون؛
بالقربان المقدس،
وترون فيه الله.
يا من تأكلون قرابينكم.[2]

لقد عرفتنا النصوص الواردة عن حياة المواركة الدينية، على الكثير من الأحوال التي كانت تجتمع عليها مشارب أولئك القوم، في الحفاظ على مسار الإسلام تحت الاضطهاد التنصيري، وقد أظهرت الطرف المقابل الذي حاول مواجهة تلك الروح المتاولة، وما أنتجته من زخم ديني أغنى الكيان الإسلامي الأندلس، فما كان من جلاوزة محاكم التفتيش إلا الوقوف بكل ما أوتوا من جبروت. بل لقد تجاوزت سلطة الكنيسة الإسباني في مواجهة الروح الإسلامية؛ بحسب الوصف الذي ينقله لنا

---

(١) الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحية: ٣٨٨.

(٢) أثر الإسلام في الأدب الإسباني: ٣٢٠.

النص الآتي: (ثم يرتقي رئيس المحكمة مرتفعا أقيم في وسط الميدان _ساحة ريبيرا_ ويأخذ في تلاوة الحكم على معاشر الزنادقة الكفار بصوت جهوري، وهو يقول: (إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالا ونساء: لأنهم يهود أو من المسلمين، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكي، وأنهم قد استخفوا بالأحكام المقدسة، وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدو البشر وليا واحتقروا الكنيسة وهم لا يأتون ثمر).(١)

كان على الموراكة أن يفكروا بجدية بحال دينهم، الذي يعارض السلطة التنصيرية؛ لتشكيل تصورهم الخاص، بما يمكنهم من الانخراط في نظام جديد، ومن ثمّ العمل على بلورته في ذواتهم بنحو سري، يتحاشى معارضة التنصير المفروض، وهو ما يؤكد أنهم كانوا في حال من البحث عن كل جديد في صراعهم الديني، ومن تلك الصراعات المريرة ما حاولوا به الالتفاف على بعض الفرائض الدينية، والاحتفاظ ببعضها الأخر، فـــ(لئن كان الوضوء يصعب عليهم فإن إقامة الصلاة المفروضة كانت لا تنقطع. فقد كانت كتيبات الصلاة تتداولها الأيدي بكثرة طول القرن السادس عشر، ولا حاجة إلى القول بانها كانت تسري تحت طي الخفاء وفي أشد السر).(٢)

لقد بلغت بهم هذه الحال حدا من الذكاء يؤكد أن التنصير، قام على حتمية اتخاذ هدف للوصول إلى أهمية خاصة في أوقات معلومة، ومنها التحايل اللغوي؛ إذ (إنهم كانوا يجبرون على صلاة النصارى باللغة الإسبانية، فكان فيهم من لا يريد تعلمها يمكن له أن يعتذر بأنه لا يعرف الإسبانية؛ حتى لا يصلي صلاة النصارى التي لا تجوز بلغة غير اللغة الإسبانية).(٣)

وتأسيسا على ذلك الوضع الفكري فقد حملت صورة الموريسكيين، خصائص الزمان والمكان التي تنتمي إليهما، وهو ما يلتقي مع الأسلوب الرصين الذي وصل

---

(١) جرائم محاكم التفتيش: ٨٨.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في إسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٠.

(٣) محنة الموريسكوس الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها: ٣٣.

بالموريسكيين إلى امتلاك القدرة على التكيف مع ظروف المجتمع ... المتعصب إلى حد ما؛ ذلك المجتمع الذي وإن غفل عن الممارسات ... صلاة وزكاة وغيرها، إلا أنه وقف بشكل ملحوظ لتقييد ... إزاء أداء فريضة مهمة من فرائض الدين الإسلامي، ونعني بها فريضة الحج؛ كما قرر الأستاذ لوي كارديلاك بقوله: (أما القيام بالحج فذكره موجود في شهادة نادرة، جاءت بعنوان مقاطع شعرية لحاج بيوي مونزون _قرية صغيرة بولاية أراغون_ النظم المذكور يصف الحج في أواخر القرن السادس عشر، يذكر فيه صاحبه مصاعب السفر، وقد كانت كثيرة إلى حد أن الموريسكيين الذين استطاعوا أن يقوموا به كانوا قلّة قليلة).(١)

ويلحظ من هذا الكلام أن الموريسكيين، كانوا يحاولون السير في سبيل الفرائض الإسلامية كافة، وما المحاولات الكثيرة إلا صورة للذات المسلمة التي تحاول الإتيان بما يساير ذاتها، ويخالف المؤثرات التي تواجهها من عصر وجنس ودين وبيئة؛ لأن هذا الصمود هو الذي يحدد مجموعة الأفكار، التي تنظم سمات الحياة الدينية في ذلك العصر المرير، ويجلب الانتباه إلى أهمية التغيير في الأساليب، كما الأفكار التي تفرز الفكر الديني الموريسكي عن نظيرتها الأسبانية؛ إذ إن (عمل الموريسكيين لم يقتصر على التأليف، بل كانت تتخلله ترجمة ذكية تميز بين السجلات والدلالات والرموز. فهم إذ يعزفوا عن استعمال كلمة dios وما يكتنفها عند المسيحيين من معاني التثليث ويتمسكوا باستعمال كلمة الله بما فيها من إثبات لفكرة التوحيد، يعبروا عن رسوخ إيمانهم، وينقلوا هذا الإيمان في إسبانية مأسلمة إلى أخوتهم في الدين).(٢)

ومن هذا القول يظهر أن الموريسكيين قد نظموا شكل مجتمعهم دينيا، وخففوا من سطوة الأسبان التنصيرية، ونجحوا في تحويل ما توارثوه من أدبيات دينهم الحنيف، على الرغم من الجرح الغائر الذي لازم ذاكرة أتباعه المضطهدين، و...

---

(١) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن ... عشر الميلادي: ١٣١.

(٢) الأدب الألخمي الموريسكي تأصيل لكيان: ٤٨.

تعرضوا لأبشع ألوان العذاب. وتمكنوا بهذه الصورة من بناء تصور وهمي للطرف التنصيري؛ لتتحول مع مرور الأيام إلى عنوانهم الأكبر الذي حفظ الإسلام في وجدانهم الخفي.

ـ الصورة الاجتماعية:

إن المحاولات الحثيثة للطائفة الموريسكية في الأندلس؛ للتكيف مع المحيط الاجتماعي هناك بعد سقوط غرناطة، قد أظهر المنجز الكبير الذي حاول محاكاة التصور الاجتماعي لسكان شبه الجزيرة الأيبيرية، ولاسيما المحتلون الأسبان الذين حاولوا بدورهم فرض أنموذجهم الاجتماعي في عاداتهم وأعرافهم الموروثة. وقد بدأت الهواجس المتبادلة من الطرفين تتنامى إلى حد كبير؛ للتعرف على طبيعة العلاقات التي تحكم أواصر كل مجتمع على حدة، ومن ثم الخوض في تأثيرات الوسط الاجتماعي المفترض ولوجه.

لقد أوضح الفكر الموريسكي الاجتماعي المرصوف في المحيط التنصيري، أهمية الوصول إلى أنواع جديدة من العلاقات الاجتماعية، سواء أما كان منها ظاهرا أم باطنا؛ ليخرج على وفقها بتصور طبيعي، لا يخالف ظاهر الحياة الاجتماعية المفروضة من الآخر، وبما يعزز المشترك الإنساني من جهة، فضلا عن الحفاظ على الموروث الاجتماعي، الذي عرضته الحضارة العربية في بلاد الأندلس من جهة أخرى.

كان للمظهر الاجتماعي أهميته في بيان وجهة الموريسكيين الحقيقية، ومعرفة المساحة التي يقفون عليها من التنصير المفروض؛ لأن للحياة الاجتماعية علاقة واضحة بالحياة الدينية، فالفكر الديني ينتج نسقا اجتماعيا معينا. وهكذا عمل الموريسكيون على تأكيد الشروط الاجتماعية المرتبط بإسلامهم، وسعوا إلى ربطها بمجتمع الدولة الرسمي، وجهدوا في تسوية واقعهم بمستجدات المرحلة؛ إذ لم تغفل النصوص الإسلامية الدعوة ـ وإن كانت بحذر شديد ـ إلى إزالة التفرقة الاجتماعية

بين المسيحيين و الموريسكيين؛ لأن ذلك سيساعد على سرعة الاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه).(١)

وهذا الشأن يؤكد حرص الموريسكيين على إيجاد مرحلة من المقاربة الاجتماعية، التي تأخذ صورتها خلق مساحة من الاستقلالية عن التأملات التنصيرية، وعليه فإن الموريسكي يسعى بطبيعته إلى الاستفادة من الأوضاع القائمة وقتذاك؛ لغمس وجدانه المتشرب بالأعراف الإسلامية، في تطوير الفكر الاجتماعي المؤسس على مفاهيم الآخر؛ للاقتراب من طبيعة المجتمع التنصيري، والارتباط بحياته الاجتماعية العامة. التي تتشكل بحسب مزاج ساسة التنصير، ونظرتهم إلى حال مجتمعهم الأسباني.

فقد أصدرت الملكة خوانا في سنة١٥٢٥م مرسوما تعرض لأعراف الموريسكيين الخاصة، ومنها ما يرتبط بزيهم العربي، بعد مضي ربع قرن على عملية فرض التنصير، إذ نص ذلك القانون على أنه: (يحظر على الموريسكيين استخدام الملابس العربية التقليدية، ويرغمون على ارتداء الملابس التي على النمط الإسباني، ويمنع أي خياط أن يخيط الملابس المحظورة، فإن فعل عوقب بأشد العقوبات).(٢)

هذا المرسوم التنصيري عزل الموريسكيين مرة أخرى عن جذورهم الاجتماعية، وقد صدرت خوانا بمرسومها هذا، عن وعي عميق بوظيفة الملابس الإسلامية العرفية، التي تنفتح على العنوان الملزم للطبيعة الاجتماعية لها، التي تنأى عن الطبيعة المخالفة. وتبرز أثر المظهر الخارجي لأبناء الأندلس، ومن ثم فقد تناول المتنصرون هذا العرف بطبيعتهم الاجتماعية الأسبانية، وفتحوا بابا جديدا يعمل على تيسير خلق مناخات مساندة للتنصير المفروض، بل لقد تعدوا بفعلتهم حيث النساء الموريسكيات؛ ليكون عاملا حاسما في نتاج مجتمع تغيب فيه العفة، ما يسوّغ في خلق بيئة مناسبة يترعرع فيها الموريسكيون بحسب الرغبة الأسبانية؛ لهذا

(١) أثر الإسلام في الأدب الإسباني: ٢٢٨.
(٢) الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: ٧١٧.

أصدروا قرارا (يلزم على النساء المسلمات أن يسرن سافرات الوجه ولو بلباسهم، ولا يحتفلن في الأعراس حسب الطقوس الإسلامية، ويتركوا أبواب دورهم مفتوحة أيام الأعراس والأفراح والحفلات، ولا يسمح بإقامة ليالي موسيقية حسب عوائدهم وتقاليدهم، ويمنع استعمال الآلات العربية للموسيقى والتغني بأغانيهم، ولم يكن فيه ما هو ضد النصارى، ولا يستعملون الأسماء العربية مع السماح لمن سموا قبل بها، ولا تتجمل النساء بالأزهار، ويؤمر بإيقاف عمل الحمامات وهدمها).[١]

ومن هذا الإلزام نجد أن الأسبان كانوا يلاحقون ما يمسك العلاقات الاجتماعية عند الموريسكيين ومنها مظاهر الحشمة التي هي روحية وفطرية، تظهر الخصوصية الإسلامية المحافظة على ناموس الإنسان، وهو ما أدركته أفكار القساوسة وعمدوا نحوه بكل ما أوتوا من قوة، وعضدوا ذلك بمراقبة حال النسوة والرجال في أيام المسرات والحفلات، ومحاولة رفع الحاجز فيما بينهم وضمهم في حلقة واحدة، وليس أدلّ بعد ذلك على وعيهم بما يجلب ذلك من تحلل اجتماعي للموريسكيين، علّهم بذلك يلحقونهم بالمناخات الاجتماعية الأوروبية وقتذاك.

والمتتبع للنوازع الأسبانية يألف جهدهم الكبير في طي صفحات الموروث الاجتماعي الأندلسي لهؤلاء الموريسكيين؛ فقد تعدّت الذهنية التنصيرية إلغاء مراسم الثياب والحفلات الإسلامية، إلى الاختلاط بين الجنسين والسماح للموريسكيين والأسبان أن يختلطوا فيما بينهم، ونزع الحرمة عن التقارب بين الموريسكيات والأسبان، بل لقد زادوا في طغيانهم عندما ألزموا الموريسكيين بالاقتران على طريقة المسيحيين، وزواج الموريسكي من الإسبانية والعكس، كما نص على ذلك مرسوم الملكة خوانا(يلزم الموريسكيين بالزواج على الطريقة المسيحية، كما يجب على المتنصر أن يتزوج نصرانية أصلية، ويفرض على كل موريسكية متنصرة أن تتزوج من نصراني أصلا).[٢]

---

(١) محنة الموريسكوس الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها: ٣٧.

(٢) الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: ٧١٩.

لقد وجد الأسبان في الموريسكيين ذخيرة بشرية، عليهم أن يطوعوها من خلال الزواج المختلط، ولكن أولئك لم يحرجوا من الزواج بالأسبانيات، مع الأخذ بحرمة زواج بناتهم من الأسبان، وإن كانت حرمة بالقلب، كما أفتى فقيه وهران: (وإن زوجوكم بناتهم فجائز لأنهم اهل كتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون ذلك في قلوبكم، ولو وجدتم قوة لأنكرتموه).[1]

وتأسيسا على هذه (الصورة) التي أرست سبل النجاة من المزالق الكبيرة، فقد قطع المظهر الاجتماعي المتمثل بالزواج شوطا كبيرا، نحو إحداث فرز حقيقي في البنية الاجتماعية للجالية الموريسكية المسلمة، التي لم تخنع لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة في مسألة الزواج المختلط؛ لتؤطر العلاقة بين الجنسين شرعيا، وعلى الطريقة الإسلامية سرا، بعدما يعقدونها في الكنائس أمام مشهد عام؛ إذ (إن العيشة الزوجية بدون عقد نكاح شرعي، هي عند الموريسكي زندقة ومروق عن الدين. ولذا فأغلبهم يعملون بقاعدة النكاح الشرعي، وينطقون بالصيغة المطلوبة أمام القاضي كلما أمكنهم ذلك).[2]

وهم بذلك قد نجحوا في تحصين أبناء جلدتهم من الاختلاط الغير شرعي، كما يحدث في المجتمع الآخر (الإسباني)، فضلا في عدم الاعتراف بالطقوس الرسمية التي تعقد تحت سقف الكنيسة، آخذين منها المظاهر الخارجية، التي توهم القساوسة والرهبان بقبول الموريسكيين الظاهري، بصيغة النكاح على الطريقة التنصيرية؛ للحفاظ على عدم إقصائهم نهائيا وإلغائهم من قبل الطرف التنصيري، وإبعاد ما يدور في ذهنيته من شكوك كثيرة، وبذلك يمكنهم من شروطهم الدينية، التي لا تعترف بسلطة الكنيسة التي تشرف على مراسم النكاح، بل وتجبرهم على ما يخالف ما ورثوه، فـــ(عند الزواج يجبرون أيضا على أن تلبس العروس لباسا نصرانيا،

(١) نهاية الأندلس أو تاريخ العرب المتنصرين: ٣٤٣.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٢.

وتذهب إلى الكنيسة؛ لتتزوج حسب الطقوس المسيحية، وعند عودتها إلى منزلها تنزع اللباس النصراني، وتلبس العربي المسلم ويدخلونها في مكان مهيء لذلك، مزخرف بنوع من الثياب الملون بالأحمر والأزرق، ويقيمون الحفلات بموسيقاهم وحلوياتهم حسب العادات الإسلامية بالأندلس).(١)

وبخصوص هذه النقطة الحرجة من المواقف التي اتخذت ضد الموريسكيين، فقد كان على أبناء الإسلام في الأندلس المسلوب، أن يكونوا على قدر كبير من المسؤولية الاجتماعية، التي تؤهلهم لتجاوز هذا المشكل الاجتماعي الجديد، الذي كان يحتاج إلى جهد كبير، بعد أن يتجاوزوا حدود الكنيسة؛ لأن التفكير بتفعيل الممارسات الإسلامية، كان يحتاج في حد ذاته إلى تجاوز حال التهميش الكبيرة على المستوى الذهني أولا، ومن ثم الذهاب إلى ما هو أكثر مأساوية من تغيير الوضعية العرفية في الأفراح والحفلات، وهذا الأمر كان يلقى رواجا مكتوما؛ لأنه لا يتوافر على سوق لبيع الملابس والأزياء الخاصة بتلك المناسبات، بعدما منع الأندلسيين من ارتداء الملابس العربية التقليدية، فكيف بتلك الملابس التي تزداد خصوصيتها وحرجها بحراجة مناسباتها.

كانت العقوبات الصارمة تنتظر من يخالف التقاليد الأوروبية الاجتماعية، التي تشبع بها الأسبان، الذين لم يتوقفوا عن ملاحقة الموريسكيين بكل ما تتوافر لديهم من وسائل؛ لأجل إخماد الروح الإسلامية، وإن ظهرت في القشرة الخارجية لحال أولئك المنكوبين، الذي يؤشر تمسكهم بتقاليد إسلامية موروثة، وإن ابتعد بهم الزمان والمكان، وهو الأمر الذي أودى بهم إلى محاكم ديوان التفتيش، فالواقع يخبرنا أن (المحاكمات التي قامت بها المحاكم الدينية تنبئنا بأنهم كانوا يحتفلون، أيضا على قدر الإمكان بيوم الجمعة، فقد اعتادوا في ذلك اليوم أن يغيروا ثيابهم، ويلبسوا لباسا نظيفا، وفي الليل كانوا يتناوبون في جمع الأقارب والأحباب للغناء والرقص ولتناول أطعمتهم المفضلة. ففي سنة ١٥٣٨ مثلا قدم الموريسكي خوان دي بورقوص إلى محكمة طليطلة؛ لأنه كان ينظم في بيته اجتماعات ليلية تعزف أثناءها الآلات

---

(١) محنة الموريسكوس الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها: ٣٣.

الموسيقية، ويقام رقص الزمبراء ويؤكل الكسكسي. وأخذ عليه وعلى ضيوفه أنهم يعيشون كأنهم في أرض الإسلام ويغنون أغاني عربية ويتنادون بأسمائهم العربية).(١)

ويصرف هذا النص الذي نقله لنا كارديلاك النظر إلى الطبيعة التي تمسك بها الموريسكيون، وتعاهدوها في تجمعاتهم الخاصة تحت مظلة التنصير، فهم لم يؤمنوا بالاجتماعات التي تأتي بها الكنيسة، بل إن مجرد التفكير باندماجهم ضمن أدبيات المجتمع الأسباني، كان يمثل ضربا من الوهم الذي رموا به الذهنية المقابلة، وما المحاكمات التي كانت تجري لهم بسبب السير في الأعراف الإسلامية، إلا دليلا على تعلقهم الكبير بكل ما ورثوه من مآثر أجدادهم الأندلسيين، بل إن الحقيقة الاجتماعية للموريسكيين كانت منعزلة بنحو كبير عن غيرهم، فكرا وسلوكا، وهذه العزلة نتيجة طبيعية لتجنب ردة فعل الأسبان الذين صادروا الحريات كافة، ما دعا الموريسكيين إلى ممارسة نشاطاتهم الاجتماعية من احتفال وإطعام وتسمية، على وفق النظام الاجتماعي العربي المسلم الذي تمسكوا به في أنكأ الظروف. لقد تعددت الممارسات الاجتماعية السرية التي حافظ عليها الموريسكيون، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا عملوها؛ ليؤكدوا هويتهم الاجتماعية الأصيلة. ومن يتتبع ذلك يجد أن هذه الممارسات. كانت تولد معهم مع ولادة الوليد الموريسكي إلى حين الوفاة، وهو الأمر الذي يؤشر الحرص الكبير على تمثل الروح العربية الاجتماعية، ومن ذلك ما في طقوس اليوم السابع للمولود الجديد، فـــ(عندما يكمل الطفل أسبوعا يرسل الطفل من أجل تطهيره، ويكتبون على جبهته بعض الكلمات، ويعلقون له الأحجبة التي تتضمن آيات قرآنية، ويسمى باسم إسلامي، ويذبح بهذه المناسبة ذبيحة، ويضاف إلى هذه العادات الختان الذي يجري في اليوم التاسع، ثم أجل فيما بعد حتى العام التاسع).(٢)

(١) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٢.

(٢) انبعاث الإسلام في الأندلس: ١١٤.

إن طبيعة هذا العمل الموريسكي الاجتماعي، يراعي أفق التعاليم التي كانت تستجيب لمعايير المنهجية الاجتماعية الإسلامية، بما تحمله من نفحات جمالية وعقدية وشعبية، كانت تمر عبر سلسلة من عمليات المعرفة الذاتية، التي تركن إلى قواعد رصينة، تصاحب المولود في الساعات الأولى من عمره، وتحرص على تفردها من غيرها من الأعراف التي تقام في الكنيسة. وعلى الرغم من أن كل ذلك كان يقام تحت جدران الصورة الشديدة في المنازل الموريسكية، إلا أنه حصد خيبة الطرف التنصيري، الذي لم يكن ليتوقع مثل تلك المفاجآت التي يرصفها الموريسكيون، ويحرصون عليها من الولادة إلى الوفاة. بما لا يتناغم مع المعايير الأسبانية التي لم تتغرس في الوجدان الموريسكي المسلم، وآلياتهم التي صدمت أمام قساوسة دواوين التحقيق، الذين لم يتورعوا عن إنزال أبشع العقوبات التي يندى لها جبين الإنسانية؛ إذ (كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين، حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان، فإذا علم أن رجلا اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم الموت، وإذا وجدوا رجلا لابسا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونا، أو كان أحد عائلته كذلك، فيعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته).[١]

وتعبّر هذه الأمور عن العجز الكبير الذي ختم على التنصير الإجباري، فهم قد اعترفوا من خلال أعمال الملاحقة والكشف والعقاب، أنهم لم يتمكنوا من استمالة وجدان الموريسكيين، حتى في أعرافهم الاجتماعية، التي لا تشكل بالضرورة خروجا عن الدين الإسلامي، وأن جهود سحق الذات والسلوك الاجتماعي لم تؤت ثمرتها، بل إنهم كانوا أشد عزيمة ومضاء على السير في انشغالات الروح الإسلامية، والعمل على جعل العلاقات الاجتماعية المحليّة، عنصرا مهما ومتحركا من عناصر قوة الكيان الموريسكي، بما يمثله من مصدر قوة وقتذاك. وعلى وفق ما

(١) قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، راغب السرجاني: ٦٠٩.

تقدم من صورة وصمود موريسكي، فقد قطع أولئك المنكوبون شوطا كبيرا في الحفاظ على عنوانهم الاجتماعي الموروث، وعملوا من جهة أخرى على تأسيس خصوصيات مجتمعهم الجديد الظاهر منه والباطن، ما يدفع أبناء تلك الأمة المهيضة إلى جعل الصورة الاجتماعية أداةً لتنسيق الجهود الموريسكية، وجمع شتاتهم إزاء القوى المعادية المتمثلة بمحاكم التفتيش، ما أعطى في نهاية المطاف صورةً مشرفة عن أولئك القوم، توافرت على عناصر قوة ذاتية أعجزت طغيان الآخر، الذي كان يتربص كل شاردة وواردة للإطاحة بالموريسكيين، بما لا يمكن أن يتوقعه ذهن إنسان سوي عاقل؛ ومن بين ما يطالعنا في هذا المقام، ما ذكره محمد قشتيلو بقوله: (منعت الكنيسة استعمال الحنة لظنهم أن هذا الأمر، هو من طقوس الموريسكوس الدينية، مع العلم أنها كانت عادة تستعمل في بعض الأقطار الإسلامية كالمغرب وتونس وغيرها سواء في الأعياد أو المناسبات العائلية أو حتى من الناحية الصحية. فالمسيحيون طبقوا المنع؛ لكونها عادة تخص المسلمين، وكان هؤلاء كثيرا ما يستعملونها ويتباهون بها خاصة في الاحتفالات الخاصة بالأولياء في الأضرحة، وهو ما يسمى في المغرب بالعمارة).[١]

ويبدو أن الذهنية التنصيرية كانت ترى أن أهم شيء عليها فعله، هو قطع الصلة بين الموريسكيين وبين كل ما يمت إلى الطقوس الاجتماعية، ولعلها بذلك تدرك شيئا من كبريائها، الذي كان يتقهقر أمام الصمود الموريسكي الأسطوري، ذلك الذي كان يجد أبناؤه ضرورة المشاركة في أدنى التقاليد، التي تربطهم بإخوانهم المسلمين في البلاد المجاورة، ومنها الخضاب بـ(الحناء)، بما يمنح الفعالية الواضحة للحضور الإسلامي في الذات الموريسكية، الأمر الذي أزعج الوجدان الإسباني كثيرا، ورأوا فيه مصدرا مهما لعرض عنوانا من عنوانات الحقيقية الإسلامية، التي تنطلق من سجية إسلامية. وهكذا نألف الموريسكيين وهم يحرصون على تطبيق طقوسهم الإسلامية الخاصة في مراسم دفن الموتى، وأنفتهم من الطقوس التنصيرية؛ اعتزازا بهويتهم، وحفاظا على تراثهم، وتمجيدا لدينهم؛ فقد ألف عنهم

---

(١) حياة الموريسكوس الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها: ٧٧.

أنهم (إذا دفنوا واحدا منهم عمدوا إلى الجمع بين شعائرهم الخاصة والطقوس النصرانية، وقبل استدعاء القسيس يكونون قد أجروا تقاليدهم الخاصة من غسل الميت بماء معطر بالرند والأكاليل وزهر البرتقال. وبعد ذلك يلبس أحسن لباس له. وفي المقبرة يعد اللحد إن أمكن حسب عادات مخصصة، فتوضع فيه الأطعمة المفضلة عند الميت، ثم إن كان الحفار موريسكيا، يطلب منه أن يعمق الحفر كثيرا؛ ليكون الجثمان مغطى بتراب غير مبارك عليه من قبل القساوسة).[١]

وفي ضوء ذلك كانت الصورة الحقيقة الحاضرة في فكرهم وعملهم، التي لم تتزعزع مع فرض التقاليد القسرية، وكان الموريسكي يتعامل مع الطرف الآخر من ثوابته، التي لم تزيحها السنون؛ ليؤكد طبعه الاجتماعي بنحو سري، يقوم على ملء ما يبدو ظاهرا للعيان.

ـ الصورة الثقافية:

كان للموريسكيين أعرافهم الثقافية الموروثة عن أسلافهم، وكانوا يحتسبونها جزءًا مهما من كيانهم ووجودهم وهويتهم، ورفضوا الانسلاخ عنها بوسائلهم المعروفة، ومنها الصورة التي استوعبت جميع المخاطر الأسبانية التي حاصرتهم. أولئك الذين حاولوا جعل الثقافة الأندلسية الموروثة شأنا عرضيا، وإن كان يظهر عليهم الدخول في ثوب النصرانية، ولكن ذلك الأمر لم يدفع الموريسكيين إلى الاعتراف بالسلطة الرسمية للثقافة الإسبانية. ومن هنا نظر الموريسكيون إلى الإشكال الإسباني، من وجهة النظر القومية التي كانت تقفز في تفكيرهم أكثر من أي شيء آخر. بمعنى أن اعتناق ثقافة التنصير يعني لدى الموريسكي خيانة عظمى، وهو ما يشكل في نظر خصومه الأسبان عنصرا عدائيا، ما يعني أن الحراك الثقافي كان يتمثل في نشاطهم السري في ظل الأوضاع السيئة، التي عاشوها همًا يوميا يرقب حركة التغيير المرير، المرتبط بثقافة التنصير والجنسية، وما كان من الموريسكيين إلا التمسك بالحديث النبوي الذي أكثروا من روايته: (على بني آدم أن

---

(١) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٣٢.

يقوموا بخمسة أشياء قبل خمسة أخرى: أولا أن يكسبوا في شبابهم قبل شيخوختهم. ثانيا: أن يعملوا وهم سليمو البنية قبل أن يداهمهم المرض. ثالثا: أن يخدموا أرضهم قبل مصادرتها. رابعا:أن يوظفوا رزقهم في خدمة الله قبل أن تحل بهم الفاقة. خامسا: أن يجعلوا حياتهم في خدمة الجميع قبل مماتهم، فذلك طريق الجنة).(١)

وهم قد أدركوا أن الفعل الثقافي الإبداعي، لا يمكن له أن يستوي على سوقه، إلا من خلال المشاركة الفعالة بين الأصول الثقافية الممزوجة بالروح الدينية، والجمهور الذي يتلقى العمل الإبداعي، الذي سيتكون في نهاية الطريق من عناصر متعددة، تكون قوام المعنى المتشكل في الذهنية الثقافية الموريسكية، تحت الجبروت التنصيري المفروض، وهو الشأن الذي يشكل التجربة الثقافية الموريسكية بشقيها الواقعي والخيالي.

ومن هنا فمن الطبيعي أن نجد الثقافة الموريسكية، وهي تعاني التغييب الظاهري القسري، وما ينتج من تقبل آثار النصوص الثقافية بمنحاها الإيجابي و السلبي، وما يوازيها من استجابات المتلقي الشعورية. وهذا الأمر في حقيقته يجعل النصوص الموريسكية نصوصا ترتكز في واقعها الداخلي على التأثير الشعوري عند القارئ، وما يمثله من ردود تتموقع في داخلها، من تفاعل وجداني يوازي ما عليه حال الذهنية الإسبانية؛ فقد (كانت السياسة الرسمية قد اتجهت طوال القرن السابق إلى محاولة إدماج الأقلية الموريسكية ولكنها ذهبت سدى).(٢)

وعلى أساس هذه السياسة التي حاول الأسبان فرضها على الموريسكيين، كانت أفكار أبناء الإسلام، تذهب إلى خلق مسافة معلومة تربك حسابات الأسبان، وتجعل توقعاتهم تذهب في غير ما ينتظرون، ولاسيما أن الموريسكيين هم سليلو التراث الثقافي الأندلسي، وعاشقوا حياتهم الثقافية العذوب، وإن اخترقها شيء من التعبير في المضامين المتنوعة، الذي يبرز جوهر ثقافتهم في تلك الظروف العسيرة.

(١) الغريب نماذج من الأدب الألخمي الموريسكي: د.محمد نجيب بنجميع: ٥٥.

(٢) حياة الموريسكيين الدينية عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: ١٢٨.

ولكنهم جعلوا ثقافتهم تعيش على الرغم من الأوقات الحالكة، وقرروا الحفاظ على أدبياتهم وأريحيتهم المعهودة، من خلال النظر في ذلك البعد القائم الناجم عن تفكيرهم الثقافي، ولم ينتظروا استقراء ردود أفعال الأسبان، أو طبيعة الأحكام التي سيصدر على هكذا نوع من الثقافة الموريسكية الجديدة، التي لفت الصورة كثيرا من محاسنها، معتقدين أن الآثار الثقافية الجيدة هي تلك التي تترعرع في الوجدان الذاتي، وتنغرس في الوجدان المتلقي وتلبي رغبات جمهوره عادة، وقد عبر عن ذلك أحد الموريسكيين عندما منع الأسبانُ قومَه من ممارسة فعالياتهم الثقافية والاجتماعية، وكله إصرار على السير فيما يضمن هويته وأريحيته وذاته وطبيعته المترقرقة: (يقال إنهم جاءوا ليمنعونا من التغني بأناشيدنا العذبة، بل قيل أيضا إنهم يريدون أن يحرموا علينا الاغتسال...أسفي على غيري: أما أنا فسأغني في قمم الجبال واغتسل في النهر).[١]

ومن ذلك نفهم تلك الحال التي ترعرعت في ظروف الصورة، وندرك ما كانت عليه الجالية الموريسكية من عزم على بعث ثقافتهم الأندلسية، وإن ضعفت معها الذائقة إلى حد كبير، ولكنها ظلت تحتفظ بأصولها الإسلامية والعربية، التي كانت هدف الحملة التنصيرية الكبيرة، ويدرك على وفق ذلك طبيعة التفكير الجديد، الذي يبرز العلاقة الجدلية بين أفق الموريسكي، وما تتضمنه تجربته الجديدة في المناخ التنصيري، ما يفترضه المستعمر الإسباني الذي انغلق إزاء مسألة التفاعل مع الثقافة الأندلسية، بل وحاربها بنحو بشع؛ خشية من انتشارها على التراب الأندلسي المستلب.

لقد درجت الظروف العسيرة الثقافة الموريسكية، ضمن التفسير الجديد للحياة الموريسكية، التي جاءت لاستدراك ما استبعدته تلك الظروف من مظاهر، كانت صورة للخلاف المحتدم بين الثقافتين، بما حاول ردم الفجوة الفاصلة بين الأصول العميقة، والأوضاع الجديدة التي حاصرتهم، ما يعيد الاعتبار للنزعة الإنسانية التي غيبت من المحفل الثقافي. ومن ذلك فقد انطلقت من معاودة النظر في الثوابت

(١) ملامح من صورة الموريسكي في المسرح الإسباني الحديث: ١٧٥.

ومنها ما يختص بالأدب الأندلسي، الذي أخرجته الصورة بصورة جديدة، تختلف عن صورته السابقة، كانت قد اجتمعت أوصالها من إيحاءات الظروف والأدوات المتوافرة، بل لقد تمّ التوصل إليه من خلال عملية تفاعلية بين الطرفين، وبما يخدم الجمهور الموريسكي. فـ(هذا الأدب له قيمة وثائقية وسوسيولوجية؛ إذ تضمن ما رآه الموريسكيون جديرا بأن ينتشل من طي النسيان. فقد دونوا به ما اعتبروه ضروريا لحياتهم كأقلية مهدّدة بالانقراض، وركزوا على القيم التي كانت تميزهم عن المسيحيين).(1)

هذا النوع من الأدب يعطينا صورة الحياة الثقافية، التي كان الموريسكيون الأندلسيون يحرصون عليها، بعدما رضتهم إليهم النوب الثقال، التي جعلت آثارهم عرضة للاستهلاك الذريع، والتي سرعان ما أتى عليها البلى وأوحش صورتها الأندلسية المعهودة برشاقتها وجمالها وأصالتها.

إن المهم في فعلهم الثقافي هذا هو المنحى الاجتماعي، الذي لم يرفض عملية التغير الكبير في عدد من أسسه الرصينة، التي جمعت بين الذكاء والفطنة والحرص، ما دفع إلى التكيف مع هذه الآثار الجديدة. وفي ضوء ذلك الضنك الثقافي، كان على الموريسكيين أن يعتنقوا آثارا جديدة، تعمل على تخييب توقعات الطرف التنصيري، وتفيد جمهورها المتعطش للمناخات الأدبية، فجاءت هذه الوسيلة الأدبية لتعبر عن تطور الذهنية الموريسكية، التي تبحث عن جمهور واسع، وتحافظ على وسائل التقويم الثقافي، والحاجة إلى الفن والأدب والثقافة، التي توثق جانبا من الحياة العامة للموريسكيين وقتذاك. ومن هنا نلمس أثر الصورة الإيجابي في الثقافة الموريسكية وبعثها لآليات والأدوات التي تنسجم مع معطيات عصرها، وعلى وفق ذلك (الصفة السرية المطلقة التي تمارس بها الشعائر الإسلامية، في هذه الظروف الحرجة، فقد أصبحت تعاليم الإسلام وممارساته تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل، في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية).(2)

---

(1) الأدب الأعجمي الموريسكي تأصيل لكيان: ٢٢.

(2) الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: ١٩٣.

ومن هنا نفهم محاولة الأديب الموريسكي الحثيثة، التي جعلت تلك السرية منهاجا للعلاقة القائمة بين الإسلام والأدب؛ بوصفه أهم العلوم الإنسانية التي اعتمدها الموريسكيون، في عملية نتاج معرفي كبير، تتعلق بالظاهرة الأدبية وبتجلياتها النصية المعروفة بخصوصياتها، ونقصد بذلك السرية الكبيرة والمركبة، التي تتمثل في اللغة السرية التي كتب بها ذلك الأدب، وهي (اللغة الألخميادية)، التي ولدت من المناخ الاجتماعي والثقافي للموريسكيين، فكان أن نشأ لديهم نص أدبي يمثل وضعهم وتجربتهم، فضلاً عن واقعهم المتلاطم بالمحن، الذي (كتب هذا الأدب بالإسبانية القديمة أي الرومانثية ولكن بالأحرف العربية. وكان ذلك علانية إلى حد القرن الخامس عشر. ولكن بانطلاق حملات التعميد سنة ١٥٠٢/٩٠٨، أصبح نتاج الموريسكيين الألخمي سرا؛ تجنبا لمحاكم دواوين التفتيش في زمن حرّم فيه الكتاب واللسان والحرف العربي).(١)

احتلّ هذا الفعل الثقافي المستتر هناك مسافة معلومة، كانت تربك الأديب الموريسكي من جهة، وتجعل جمهوره يدور في أفق انتظار خارق للعادة، يسّر بالأعمال الأدبية، ويجعلها ضمن أبعادها القائمة على المغزى من تلك الآثار الأدبية التي لا يمكن الوصول إليها بنحو مباشر، كما لا تملك لنفسها أن تستميل ردود أفعال القراء التي يطلقونها، ومنها هذا الأنموذج التي يوضح المحنة الثقافية الموريسكية بقوله:

آه .. يا معاشر الشعراء،اكشفوا تلك الوجوه،

جردوا من الثياب هؤلاءالمسلمين، وأوقفوا هذا الصخب،

ليذهب عزال لحال سبيله،

لتمض ثليبداخا إلى الجحيم،

ولتردوا هذه العباءات

على ما اقترضتموه منه،

فاطمة وظريفة:

(١)الأدب الألخمي الموريسكي تأصيل لكيان: ٢٠.

تبيعان الزبيب والتين

ويدعي لا جارو إرناندث

انهما في اروقة في قصر الحمراء

يصنع بنو العطار

قفقفا من السعف

والكرنب يصنعه بنو المدان.

ويستمر قائلا:

ألا ترون هذا من السخف؟

كل يوم يعود أريو لان

وعلى رأسه تراب مائة حفرة

من أجل حفنة دقيق

وترس مثقوبة:

ويأتي مجرم آخر

ليخرجه صبيحة اليوم التالي

على صهوة فرس يرتدي الزي الأخضر.(١)

لقد بلغ بهم الضنك حال أرسلت اليأس في تلك النفوس والنصوص معا، وهذه الكلمات كانت تبرز تلك الحال التي ترددت في الحياة الموريسكية العامة، والتي تلقفها ذات الشاعر في مستويات متعددة؛ وأوضح بها الذات الموريسكية المكتوية؛ تبعا لنوع العلاقات التي أرسلها في الشعراء أمثاله، بما يضبط الأحوال المتأزمة الموضحة للصورة التي شرعوها منهجا حتى في الحياة الثقافية، فضلا عن الدينية والاجتماعية، وهو ما يظهر أهمية هذا النص الأدبي، وهذا شأنهم في الأندلس بشقيها الأسباني والبرتغالي معا، فواقعهم يخبرنا (إن أوضاعهم تأزمت أكثر؛ بسبب ما كانوا معرضين له من رقابة يومية، تحرمهم حتى من إمكانية التصرّف بشكل طبيعي، وتلزمهم بلعبة ازدواجية الشخصية الصعبة؛ وذلك بالارتباط بقيم المجتمع

(١) أثر الإسلام في الأدب الإسباني: ٣٢٣.

البرتغالي، وعقيدته من الناحية المظهرية؛ لإبعاد الشر عن أنفسهم، و بالارتباط بالإسلام سرا اعتمادا على الصورة).(١)

كان للموريسكيين مسوغات لميلاد هذا النوع من الأدب، وكان لهم أن يرتبطوا بأدبهم، الذي أبرز سمات التطور الأدبي لهذه العلاقة، التي كشفت حصيلة تراكم الأزمات لديهم، وبينت معها تلك المشارب التي أسهمت في فهم ما يرتبط بالوجدان الموريسكي الأدبي، فهو اعتمد أسسا مخالفة للتيار المخالف؛ بوصفه رد فعل ضد العنف الأثيني، ولا يكون للنص الأدبي الموريسكي أهميته، إلا من خلال المشاركة الفعالة بين الكاتب وجميع طبقات الشعب الموريسكي، وهذا الأمر كان يتم كما هو معلوم في طور السرية؛ فقد(كانت عملية النسخ يقوم بها الرجال والنساء في الخفاء، ويحفظون المخطوطات في الكهوف وفي البيوت وفي تجويفات الجدران والسقوف أو في أماكن سرية أخرى).(٢)

هذه الأحوال لم تمنع الموريسكيين من ممارسة حراكهم الثقافي، بنحو يحفظ تماسك هويتهم الثقافية، وأسرارهم عن خصومهم الفكريين. الذين لم يكونوا ليتقبلوا تلك الثقافة المرموقة، التي صمدت على الرغم من طول العسرة التي أناخت على الكيان الموريسكي، ولم يجعلها تتقبل المنجز الموريسكي؛ فقد(كانت أهم جريمة توبعت بسببها الجالية الموريسكية بالبرتغال ثقافية أكثر منها عقائدية؛ فرغم السنوات التي قضاها الموريسكي بالبرتغال، والتي تعدت احيانا أربعين سنة، ورغم المضايقات اليومية والمحاكمات. استمر الموريسكي متمسكا برصيده الثقافي الذي دخل البرتغال مشبعا به).(٣)

ولكن مع كل ما ذاقه الموريسكيون من محن، إلا أن ثقافتهم حافظت على وجودها؛ بفضل الصورة التي اتبعها أولئك المنكوبون، وكان لها أن تطرح ثمرتها في الأجواء الخانقة التي حاصرتها، وليس بعد ذلك إلا أن يعيدوا حساباتهم ضمن

(١) الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحية: ٣٧٦.

(٢)الأدب الألخمي الموريسكي تأصيل لكيان: ٢٠.

(٣) الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحية: ٣٧٧.

عملية البناء الداخلية، التي أمسكت أوصال التجربة بعيدا عن التصورات الأسبانية، ومتابعتها الحثيثة التي لم تمس الواقع الثقافي الموريسكي سوى في قشرته الخارجية.

ومن ثم ألفت المؤلفات الثقافية الموريسكية تلك المؤلفات التي تبرز الثقافة الموريسكية، الذي يرتبط بأشكال الواقع المحدد، ويوجه قدراته الثقافية للتحرك لملء فراغات الوجدان الثقافي الموريسكي.ومن تلك الاسماء ميجيل دي لونا، الذي كتب مصنفه الثقافي في (تمجيد لغة القرآن الكريم، بطريقة غير مباشرة، عندما تترجم على هامش كتابه المفردات العربية لنص طريف بن طارق التاريخي المدون في القرن السابع الميلادي. ولكن ميجيل دي لونا كغيره من بقية كتاب الأدب الإسلامي، كانوا يتحدثون على استحياء عن اللغة العربية؛ نظرًا للضغوط الكثيرة التي أشرنا إليها من قبل).[١]

ومن هنا ندرك أن النشاط الثقافي الموريسكي وقتذاك، كان يمثل الحياة الثقافية التي وصلت إليها الذهنية الموريسكية، بعد الضنك الكبير الذي واجهه المثقفين الموريسكيين، ومنهم ميجيل دي لونا هذا، الذي حرص على التواصل مع النصوص العربية القديمة، وإذا كان الإسبان قد ركزوا على اتجاه واحد، وهو فرض الواقع التنصيري بأبعاده المتنوعة، إلا أن القراءة الواقعية تخرج عدم تقبل أية ثقافة خارجية، وإن انطلقوا في خطين مزدوجين يحققان مقصديته، بوساطة التأرجح بين الإخفاء والكشف؛ للخوض في معان ثقافية حرص الموريسكيون على الاحتفاظ بها.

---

(١) أثر الإسلام في الأدب الإسباني: ٣١٥.

نتائج البحث:

بعد أن انتهت هذه الجولة في مسيرة صورة الحياة الموريسكية، التي أظهرت لنا معطياتها المتنوعة، فإن للباحث أن يخرج النتائج التي توصل إليها، بناء على ما توصل إيه، وعلى النحو الآتي:

- شهدت صورة الحياة الموريسكية تميزا عما شهدته الأمم الإسلامية، بحسب الظروف التي اعتركت تلك الأمة، وجعلتها توسع من مفهومها الفكري والسلوكي؛ وليتوسع معها معطياتها، التي لا يمكن أن نتحدث عنها، خارج الظروف الخاصة بالموريسكيين، إزاء تيارين متصارعين.
- اعتمدت الصورة الدينية عند الموريسكيين، مسألة الخوض ضد تيار الأسبان الأثيني، وعملية زرع الوهم في ما كانت تعانيه تلك الذهنية، عبر عملية تكييف النصوص الدينية الإسلامية، ومظاهرها العملية الواضحة؛ لتوصف في عملية خدمة المصالح الإسلامية العليا، التي ازدادت سرية مع مرور زمن طويل يقاس بالقرون على هذه الأحداث.
- سارت الصورة الاجتماعية الموريسكية في منهجية معينة، حاولت معها أن تخضع الانتقال في الأعراف الاجتماعية بنحو متواصل من المجتمع إلى الفرد وبالعكس، ومن هذا التفكير الاجتماعي، كانت الوجهة الاجتماعية الموريسكية تعنى بكل ما يحتمله الوجدان الموريسكي من مضامين لم تخضع لجوهر الفعل الاجتماعي الأسباني، الذي ترك آثاره الشعورية، وعناصره التي تمتد الذاكرة الإسلامية.
- توارت الثقافة الموريسكية في الوجدان الموريسكي المكبوت، الذي كان يرقد في الشعور الثقافي الجمعي، ما حسم معه في مراحله الإيجابية، ضمن نماذج ابتدعتها الذائقة الموريسكية؛ نتيجة استجاباتها التي لا تخلو من الترميز، الذي جعل النص الثقافي، يرتكز على التأثير الشعوري.

مصادر البحث ومراجعه

((القرآن الكريم : برواية حفص عن عامر بن أبي النجود الكوفي)).

ـ أثر الإسلام في الأدب الإسباني: د. لوثي لوبيث بارالت، ترجمة: حامد يوسف أبو أحمد، ود. علي عبدالرؤوف اليمبي، مراجعة: د. أحمد إبراهيم الشعراوي، نشر: مركز الحضارة العربي،ط١، بيروت، ٢٠٠٠.

ـ الأمة الأندلسية الشهيدة: عادل سعيد بشتاوي، مطبعة الفكر العربي، لندن، ٢٠٠٠.

ـ أفق غرناطة:عبدالحكيم ذنون، دار المعرفة، ط١، دمشق، ١٩٨٨.

ـ انبعاث الإسلام في الأندلس:د. علي المنتصر الكتاني،دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٥.

ـ الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: د. محمد عبده حتاملة، مطابع الدستور التجارية، ط١،عمان، ٢٠٠٠.

ـ قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط: د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع والترجمة، ط١، القاهرة،٢٠١١.

ـ محنة الموريسكوس الأخيرة في إسبانيا ودورهم خارجها: د. محمد عبده حتاملة، الجامعة الأردنية،ط١،عمان، ١٩٧٧.

ـ نهاية الأندلس أو تاريخ العرب المتنصرين: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧.

ـ وتذكروا من الأندلس الإبادة: أحمد رائف، ديوان المطبوعات الجامعية، ط١، بيروت، د.ت.

البحوث المنشورة في الدوريات الجامعة وغيرها:

ـ الأدب الألخمي الموريسكي تأصيل لكيان: د. محمد نجيب بنجميع، مجلة دراسات أندلسية، تونس، العدد الثلاثون، ٢٠٠٣.

ـ تعريب نماذج من الأدب الألخمي الموريسكي: د. محمد بنجميع، مجلة دراسات أندلسية، العدد الرابع والثلاثون، تونس، ٢٠٠٥.

ـ الحياة الدينية للموريسكيين عامل تماسك لطائفة كانت تشكّل أقلية في إسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي: لوي كارديلاك، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس، ١٩٨٢.

ـ الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحية: د. أحمد بو شرب، مجلة المناهل العدد ٤٤، السنة التاسعة، وزارة الثقافة المغربية، ١٩٨٢.

ـ ملامح من صورة الموريسكي في الأدب المسرحي الإسباني: د. حسن الوراكالي، مجلة المناهل، وزارة الثقافة المغربية، العدد السابع والعشرون، السنة العاشرة: ١٩٨٣.

ـ قصة الجالية الأندلسية في المغرب الحلقة الحسن السائح، مجلة دعوة الحق، السنة ٢١ ،العدد ١ ،مارس، ١٩٨٠.